مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد السادس والعشرون

٢٦

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

عمر بن الخطاب
في
سيرته الأدبية

— ١ —

الدكتور جميل سعيد

كثيرون تحدثوا عن عمر بن الخطاب ، قديماً وحديثاً ، وأفاضوا في الحديث عنه . وكأن الرجل بصفاته العظيمة الجليلة ، التي تتعلق بالإسلام والعدل ، والفتوح ، وتدبير الملك ، وسياسة الدولة ، وسياسة الشعوب ، كأن الرجل بهذه الصفات العظيمة ، شغل المتحدثين عن الإفاضة في غيرها . او لعلهم رأوا الحديث في غيرها أمراً ليس بذي بال بالقياس اليهـا . ومن هنا رأينا ان نلم بنواح من شخصيته الكريمة ، نتحدث فيها عن احساسه في الأمور التي تتصل بنفسه ؛ لأننا نرى الحديث في هذا مقدمة لازمة للحديث عنه في سيرته الأدبية .

كان عمر عظيماً في جاهليته وفي اسلامه . وحسبك منه عظمة في جاهليته ، ان يرى الرسول الكريم — صلوات الله عليه — في اسلامه نصراً ، وان يدعو ربه فيه ، بقوله : « اللهم اشدد الدين بعمر » وان يقول فيه : « اللهم أعزّ الإسلام

بأحب الرجلين اليك ؛ بعمر بن الخطاب او بأبي جهل بن هشام » قالوا : وكان احب الرجلين اليه عمر بن الخطاب .

كان هدا في جاهليته . فلما اسلم قال صلى الله عليه وسلم : « لم أر عبقرياً يفرى فريه » اي يأتي بالعجب في عمله ، ويصنع صنيعه . وكنّاه — صلوات الله عليه — « ابا حفص » والحفص: هو الأسد ، ولقّبه « بالفاروق » ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل ، وقال فيه : « إن الحق على لسان عمر وفي قلبه » وقال — صلى الله عليه وسلم — « اشدّ امّتي في أمر الله عمر » (١) .

وحين توفي الرسول الكريم ، كان عمر عون ابي بكر ومستشاره في امور الدولة .

ثم ولي الخلافة بعده ، فطغت صفاته الجليلة العظيمة في تدبير امور الدولة ، وفي السهر والحدب على الرعية ، وفي العدل والحزم والصرامة في محاسبة قواده ، وفي محاسبة عماله وولاته . ولقد اشرف — رحمه الله — على ميادين قتال وفتح مالم يفتح مثله خليفة ، وساس شعوباً بينها ما بينها من اختلاف ، حتى قالوا عنه : « إنه عمل مالم يعمله الا القليل من اقدر الحكام في تأريخ بني الإنسان (٢) .

نقول : لعل هذه الأعمال الكبيرة ، جعلت المتحدثين عنه ، يرون الإفاضة بالحديث عن سيرته الأدبية امراً جانبياً ، ضئيل الأهمية بالقياس اليها . ومن هنا رأينا ان نتناول هذه الناحية من سيرته في هذا الحديث . ولا نعرج على غيرها إلا بمقدار مانرى له من مساس فيها . وسنتحدث عنه في حياته الخاصة ، وفي صلته باسرته واصحابه . ونأخذ في هذا بمقدار مانرى له من مساس في فهم الأدب وتذوقه وتأثّر فيه .

---

(١) انظر في هذه الاحاديث : الإصابة في تمييز الصحابة — لابن حجر ج٣/٢٧٩ وصفوة الصفوة ١٠٦/١ وسيرة عمر بن الخطاب — لابن الجوزي، ص : ٨ وما بعدها . طبعة المطبعة المصرية بالأزهر .

(٢) عبقرية عمر — لعباس محمود العقاد ؛ ص : ٦٤ . مطبعة الاستقامة بالقاهرة . ١٩٤٣

وعمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزّى... القرشي العدوي وأُمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية(١) وقد اختلف الكتاب القدماء(٢) في أبيها والكتاب المحدثون. ومن الكتاب المحدثين ، ذهب العقاد الى ان «امّه حنتمة بنت هشام بن المغيرة (٣) وتردد الدكتور طه حسين في ان اباها هاشم او هشام بن المغيرة . (٤)

اما الخطاب بن نفيل ، أبوه ، فوصفه عمر بأنه كان فظاً غليظاً، وانه كان يبعث عمر بالإبل يحتطب عليها مرة، وعلى ظهره اخرى ؛ فالرجل — على ما يبدو — ليس بصاحب المال ولا العبيد . على انه مع حاله هذه ، كان محترماً في قومه ، حتى قالوا : إنه كانت لهم السفارة والتحكيم في قومهم في الجاهلية ، (٥) وان نُفيل بن عبد العُزى ، جده ، كان الحكم بين عبد المطلب ، وحرب بن اميّة حين تنافرا وتنافسا على الزعامة .

والباحثون المحدثون يرون عمر قد ورث الشدة والبأس عن آل ابيه ، وآل امّه معاً (٦) .

ولد عمر قبل المبعث النبوي بنحو ثلاثين سنة ، يقول ابن سعد: «إنه اسلم وسنّه ست وعشرون سنة » فهو في عنفوان قوته وشبابه حين اسلم .

وقالوا في صفته : كان ابيض تعلوه حمرة، اشيب ، اصلع ، حسن الخدّين والأنف والعينين ، غليظ القدمين والكفين ، مجدول اللحم ، حسن الخلق ، ضخم

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر ، ج ١/٢٧٩

(٢) قال ابن الجوزي: « وقد روي عن ابن اسحق ان حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ،وابو جهل خاله. قال الشيخ: هذا وهم . والزبير بن بكار اعرف بالنسب ،وقد قال: ولد المغيرة بن عبدالله هاشماً وبه كان يكنى ،وهشاماً و ابا حذيفة و ... فقد بان بهذا ان هاشماً وهشاماً اخوان، فهاشم والد حنتمة، ام عمر رضي الله عنه. وهشام والد الحرث رضي الله عنه ، وابي جهل» ابن الجوزي—سيرة عمر بن الخطاب ، ص: ٦

(٣) ص : ٣٧ عبقرية عمر .

(٤) انظر : « الشيخان » لطه حسين ، ص : ١٢٧ ،

(٥) الاصابة في تمييز الصحابة ٣/٢٧٩

(٦) انظر : الشيخان » لطه حسين ص: ١٢٧ والعقاد – عبقرية عمر ، ص : ٣٧

الكراديس (١) اعسر ايسر ؛ اي يعمل بكلتا يديه جميعاً . وكان طوالاً ، يكون بين الناس وكأنه على دابة . وكان شديد الوطء على الأرض اذا مشى . قالوا : فإذا شاء ان يركب اخذ اذن فرسه بيده ، وجمع جراميزه ، ووثب عليه ، فكأنما خلق على ظهره . وكان جهوري الصوت اذا تحدّث .

هذه صفاته الجسمية . ووصفه ابن عباس – رضي الله عنهما – فقال : « هو كالطائر الحذر ، قد علم أنه نصب له في كل وجه حبالة »(٢) وعلّق الجاحظ على قول ابن عباس هذا ، بقوله : « شبه حزم عمر وتخوفه من الخطأ ، وحذره من الخدع بالطائر الحذر » (٣) وفي صفة عمر هذه قال المغيرة بن شعبة ، لعمرو بن العاص ، وهما من الدهاء ماهما ، قال(٤) : « أأنت كنت تفعل او توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك ؟ والله ! مارأيت عمر مستخلياً بأحد الا رحمته ، كائناً من كان ذلك الرجل . كان عمر – والله – اعقل من ان يخُدع ، وافضل من ان يَخدع » .

هذه هي صفات عمر ، كما يراها الناس . ولابد لنا ونحن نتحدث عن سيرته الأدبية ، ان نتناول احساسه وعواطفه ، بما يُنطق الناسَ بالأدب والشعر . ومعلوم ان الناس ليسوا سواء في احساسهم وتأثرهم بهذا . انهم يختلفون فيه ، بمقدار مالهم من حساسية ، وما لهم من تجارب . ولبيان هذانقول : إن هؤلاء الذين لم يذوقوا لوعة الجوع ولم يعرفوا اللوعة في حرمان الأمن ، لايحسّون احساس القرشيين في قوله تعالى ، في الآية الكريمة : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » وهؤلاء الذين لم يذوقوا حرّ العطش – وهو الغالب على العرب في صحرائهم – لايحسون احساس العرب ، بما في قوله تعالى : « ونادى اصحابُ

---

(١) الكراديس : رؤوس العظام

(٢) البيان والتبيين – للجاحظ : ٢٦٦/٣

(٣) الحيوان : ٤٥٨/٧.

(٤) عبقرية عمر للعقاد – ص : ٦٢

النار اصحابَ الجنة ان افيضوا علينا من الماء ، او مما رزقكم الله ، قالوا : ان الله حرمهما على الكافرين» وهؤلاء الذين لم يرزأوا بأبنائهم واخوانهم في الحياة، قد لايحسون ، بما في سورة يوسف ، من لوعة لأبيه ولا يحسون، بما في اشعار متمّم بن نويرة ، وابن الرومي ، وغيرهما من شعراء الرثاء احساس المرزّئين. وقل مثل هذا في قراء شعر المجنون عاشقين ، وغير عاشقين ، ثم قل مثله في اناس يسمعون الكلام الأدبي، يفهمونه ويذوقونه ويتأثرون به ، واناس فقدوا الحاسة الأدبية ، وصاروا يسمعونه و كأنهم لايسمعونه .

وعلى هذا ، فلا بد لنا من حديث عن عمر بن الخطاب ، في نواحيه هذه التي نراها تتصل بالأدب ، وتعين على فهمه وتذوقه ، والتأثر بما فيه .

* * *

عمر و الطعام

ونبدأ بالحديث عن الطعام وشهوته ، وعن الجوع والشبع عنده، فنقول : يرى بعض علماء النفس ، ان الغريزة التي تدفع الإنسان وراء قُوتِه ، اقوى الغرائز . ويمثلون على هذا، بأن لو ان انساناً ترك في الصحراء طويلا من غير امرأةٍ ، وترك يوماً واحداً من غير طعام، ثم قدّر له ان يراهما معاً، وان يخيّر بينهما، فإنه يختار الطعام ويفضّله . ولو تركت امرأة مع طفلهافي الصحراء ، وبلغ بهما الجوع غايته، ثم عثرت على ما يسدّ الرمق، فإنها — في كثير من الأحيان — تفضّل نفسها على طفلها . بل ربما اكلت بعض الأمهات اولادها حين يشتدّ بها الجوع ، وهذا ما يحدث لكثير من انثى الحيوان . وهكذا يرون ان الغريزة التي تدفع الإنسان وراء قوته ، تغلب—في كثير من الأحيان—غريزة حفظ النوع ، والغريزة الجنسية ، وهما اقوى الغرائز .

واذا علمنا مدى تأثير هذه الغريزة في حياة الإنسان ، ومدى سيطرتها عليه ، فإننا لانعجب ان نراها تهيج العاطفة، وتنطق الناس بأدب وشعر ، احرّ من شعر

العشق ، واحرّ من شعر الرثاء . وحسبنا من ابن الرومي الشاعر دليلاً على هذا .

ولا يغرّنّك الاّ ترى هذا في الشعر الجاهليّ . إنّ الشعراء الجاهليين ، كبتوا احساسهم بالجوع كبتاً ، وفخروا به ، وجعلوا التصريح به امراً يخزى الأنسان منه ، ويلام عليه . ومن جميل مايروى لهم في هذا ماينسب للشنفرى ، في القصيدة المسماة لاميّة العرب :

اديم مطال الجوع حتى اميته واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
واطوي على الخمس الحوايا كما انطوت خيوطة ماريّ تغار وتفتل
واغدو على القوت الزهيد كما غدا ازلّ تهاداه التنائف اطحل(١)

ونحن نأخذ بهذه المقدمة ، لنرى احساس عمر بن الخطاب ، بهذه الناحية ، ولنرى مدى ذوقه لنصوص الأدب فيما يتعلق بها .

اشار القرآن الكريم الى هذا ، وخوّف العرب — وصحراؤهم شحيحة قاسية بطعامها — به . وحسبك من شحّها ان نهى الاسلام اهلها ، ان يقتلوا اولادهم خشية املاق ؛ قال تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، نحن نرزقكم وإيّاهم» (٢)فانظر كيف وعدهم بثوابهم بالرزق ، في الدنيا قبل الآخرة ، لأنهم يضيقون به ولا يصبرون عليه في الدنيا . وانظر الى عبارة « نحن نرزقكم » وما بها من تأكيد الرزق عليه سبحانه ، وانظر الى سبقها للفظة : « وإيّاهم » . وفي الحديث لآدم عن الجنة ، قال : « إن لك الاّ تجوع فيها ولاتعرى»(٣) وحين تحدّث سبحانه عن اهل الجحيم ، قال : «ليس لهم طعام الاّ من ضريع ، لايسمن ولا يغني من جوع » (٤) وانظر الى قوله تعالى : « ولايغني من جوع » . وحين خوّف سبحانه ،

(١) انظر : « الوصف في شعر العراق » — لجميل سعيد . ص : ٣٨٩
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٧
(٣) سورة طه الآية : ١١٧
(٤) سورة الغاشية الآية : ٦

قال : « ولنبلونّكم بشيئ من الخوف والجوع » .(١) ومما وصف به المؤمنين في الدنيا قوله : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شرّه مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً واسيرا » .(٢) وانظر الى عبارة : « على حبّه » وما فيها من تأكيد لأهمية الطعام .

وكتب ابن الجوزي عن عمر – رضي الله عنه – وجعل فصلاً من كتابه (٣) في زهد عمر ، فجمع بعض حديثه عن الطعام ، وعن اللباس ، وعدّهما مظهري الزهد الهامّين . وقد بين في حديثه عنه اكتفاءه بالطعام الخشن القليل ، حتى ان الوافدين عليه من عمّاله وولاته ، كانوا يرون مشقة في الإقبال على طعامه . وكان بعض الولاة يجيع نفسه ، ويبالغ في هذا ، ليستطيع مؤاكلة عمر على طعامه .

وننظر في اخباره هذه ، وفي حديث عمر لضيوفه ، وللائميه على طعامه الخشن منهم ، فنراه لايعرض عن الطعام الناعم الرقيق ، اعراض العازف عنه ، غير الراغب فيه ، ولكنه يعرض ، وهو يذود نفسه ذوداً عنه . وشتّان بين انسان لايشتهي شيئاً ويزهد فيه لأنه لايشتهيه ، وآخر يشتهيه ، ويصدّ نفسه عنه ،وهو يغالبها مغالبة . بل شتّان بين حرمان من يشتهي الشيئ ، ولا يناله لبعده عنه ، وبين حرمان من يشتهي الشيئ ويكون في مناله،ويدفع نفسه عنه دفعاً،ولله اشارتهم في ما يُغَنّى به في ايامنا هذه :

وأمرّ مالاقيت من الم الجوى ... قرب الحبيب وما اليــه وصــول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورهــا محمــول

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥
(٢) سورة الأنسان الآية : ٨
(٣) سيرة عمر بن الخطاب ، ص : ١١٨ وما بعدها

لم يكن عمر من الموسرين في جاهليته ، وقد مرّ بنا ان اباه الخطّاب « كان فظاً غليظاً » على حدّ وصف عمر له ، وانه كان يبعثه في ابله ، يحتطب عليها مرة وعلى ظهره اخرى . واراد عمر بعد ان اسلم وصار خليفة وملك الدنيا ، اراد ان يذلّ نفسه ، فنادى بالناس : الصلاة جامعة ! ثم جلس على المنبر ، حتى اذا امتلأ المسجد ، قام فقال : « الحمد لله! لقد رأيتني اؤاجر نفسي بطعام ، ثم اصبحت على ماترون . . . » (١) ولامه اصحابه ، ولامه ابنه على هذا ، فقال له : « إن اباك قد اعجبته نفسه فأحبّ ان يضعها » .

وقد يظن القارئ ان انساناً ذاق الجوع واحسّه ، حتى صار يؤاجر نفسه بطعام ، ثم قدّر له ان يملك الدنيا على نحو ماملكها عمر، سيتأنق في طعامه ماوسعه التأنق، ويأكل بنهم وشره دونه شره ابن الرومي الشاعر ونهمه . ولكن عمر يشتهي الطعام ، ويذود نفسه عنه . قال سفيان — رحمه الله — : «كان عمر يشتهي الشيء لعله يكون بثمن درهم فيؤخره سنة»(٢). ودخل عمر على ابنه عبدالله فإذا عنده لحم، فقال عمر : ماهذا اللحم ! ؟ قال : اشتهيه . قال عمر : وكلما اشتهيت شيئاً اكلته !؟ كفى بالمرء شراً ان يأكل كلّ ما اشتهى. وعن جابر بن عبد الله، قال : رأى عمر ابن الخطاب — رضي الله عنه — في يدي لحماً معلّقاً ، فقال : ماهذا ياجابر !؟ قلت : اشتهيت لحماً فاشتريته . فقال عمر : كلما اشتهيت اشتريت !؟ ما تخاف هذه الآية: « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » (٣) . وكان رحمه الله يكرر هذه الآية الكريمة ، كلما عرضت له شهوة ، وشهوة في الطعام خاصة (٤)

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص : ٣٣

(٢) ابن الجوزي ص : ١٢٧

(٣) سورة الأحقاف الآية : ٢٠

(٤) انظر ابن الجوزي ص : ١١٩

ولنرى كيف كانت تتحرق نفس عمر للطعام الشهيّ ، وكيف كان يذود نفسه عنه ذوداً ؛ لأنه لايشعر بالعدل والإنصاف حين يأ كل من الطعام ، ما لا يستطيع ان يأكل مثله عامة المسلمين ، نستمع اليه ، وكأنه يناجي نفسه بشهيّ الطعام في قوله(١): « لولا مخافة الحساب لأمرت بحَمَل يُشوى لنا بالتنّور» . اترى رغبة وتحسراً على طعام تبلغ هذا المبلغ بانسان قهر الدنيا وملكها !؟ .

ويعاتبه اصحابه على خشونة عيشه ، فيقول رادّاً عليهم ، بأنه يعرف العيش الرقيق كما يعرفونه ، ويقول وكأن نفسه تتوق لهذا العيش الرقيق : « اترون أني لا اعرف رقيق العيش !؟ لباب البرّ بصغار المعزى » (٢) وقال الربيع بن زياد الحارثيّ (٣) وكان عاملاً لعمر على البحرين ، واستقدمه عمر ، قال : « فقلت يايرفأ — مولى عمر بن الخطاب — ايُّ الهيئات احبّ الى امير المؤمنين ان يرى عمّاله فيها ؟ فأومأ يرفأ الى الخشونة . قال الربيع : « . . . ثم دعا عمر بالطعام ، واصحابي حديثو عهد بلين العيش ، وقد تجوّعت له فأتي بخبز يابس ، واكسار بعير ، وجعلت آكل . ثم سبقت مني كلمة تمنيت اني سخت في الأرض ولم الفظ بها ، قلت : لو نظرت ياامير المؤمنين الى قوتك من الطحين فيخبز لك ، قبل ارادتك اياه بيوم ، ويطبخ لك اللحم كذلك ؛ فتؤتى بالخبز ليّناً ، وباللحم غريضاً » . ويشعر عمر كأنّ الربيع يعلّمه ويدلّه على لين الطعام ، كأن عمر لايعرفه ، ولايدريه فيقول : « لنحن أعلم بليّن الطعام من كثير من آكليه ، ولكنّنا ندعه ليوم تذهل فيه كلُّ مرضعة عمّا ارضعت ، وتضع كلُّ ذات حمل حملها » ! (٤)

ثم يسارع الى ذكر ما يشتهيه ، ويحبس عنه نفسه ، فيقول : « ياربيع لو نشاء

(١) ابن الجوزي ، ص : ١٢٣

(٢) البيان والتبيين للجاحظ : ١٨/١ طبعة عبدالسلام محمد هارون

(٣) العقد الفريد : ١٥/١

(٤) ابن الجوزي ص : ١٢٣

لملأنا هذه الرحاب من صلائق ، وسبائك ، وصناب ! ولكنيّ رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم ، فقال : « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها»

وكان عام الرمادة ، واصاب العرب في جزيرتهم جدب ، اضطرهم ان يأكلوا الميتة ، وان يستخرجوا الضباب والجرذان من جحورها ليأكلوها . واتصل الجدب تسعة اشهر . وابت نفس عمر الكريمة الا ان تجوع كما يجوع الناس . يقول الرواة : سمعنا اشياخنا يذكرون ، ان عمر كان ابيض ، فلما كان عام الرمادة ، وهي سنة المجاعة ، ترك اكل اللحم والسمن ، وادمن اكل الزيت ، حتى تغيرّ لونه (١) ونقول : قد لا يغيرّ ادمان الزيت الوان الناس ، ولكنهّم يريدون : ان عمر حرّم على نفسه اكل اللحم ، واكل السمن — وهما افضل من الزيت عندهم — وصار يأكل الزيت لأنه دونهما عندهم في المنزلة ، ولعلّه — رحمه الله — هزل وذهب بياضه ، فظنوا هذا من ادمانه الزيت .

وعمر يأبى عليه عدله ان يأكل مالا يستطيع الناس ان يأكلوا مثله . قالوا : اجدب الناس على عهد عمر ، فما اكل سمناً ولا دسماً حتى أكل الناس .وقالوا : « لما قدم عتبة بن فرقد اذربيجان أُتي بالخبيص ، فأكله فوجده شيئاً حلواً طيباً . فقال : لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا ، فجعل له صَفَطين عظيمين ، ثم حملهما على بعير . . . وذاقه عمر ، فاذا شيئ حلو ، فقال للرسول : أكلُّ المسلمين تشبع من هذا في رحالهم !؟ قال : لا . فقال عمر : امّا لا ، فارددهما . ثم كتب الى عامله : «امّا بعد ، فإنه ليس من كدّك ولا كدّ امّك . اشبع الناس مما تشبع منه في رحلك » ولا يفوتك النظر الى عبارة : « ولا من كدّ امّك » وما فيها من زجر . وعمر يستعمل هذا في تعابيره ، حين يلوم ولاته ، وكأنها ضرب

(١) الإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر : ٢٧٩/٣

من التعنيف او الشتيمة.(١) كان عمر يشعر انه حارس لأموال المسلمين ،وكان يرى خيانة لهذه الحراسة ، ان يشبع رغباته في الطعام ، ويصل الى ما لا يستطيعون الوصول اليه منه .

وناحية اخرى كانت تذود نفسه عن الطعام ؛ ذلك انه احبّ صديقيه الكريمين : رسول الله صلوات الله عليه ، وابا بكر الصديق ، وقد نهجا الزهد في مطعمهما ، فخاف ان يخالف طريقيهما في هذا ، فيختلف به الطريق . ولطالما حدّث بهذا ، وذكره .

عن محمد بن قيس ، قال : دخل ناس على حفصة بنت عمر — رضي الله عنهما — فقالوا «: ان امير المؤمنين بدا علباء رقبته من الهُزال ، فلو كلمته ان يأكل طعاماً هو الين من طعامه . » وكلّمته حفصة ، فسألها عن افضل طعام للرسول — صلى الله عليه وسلم ، فكان التمر ينزع نواه ، فقال عمر ، للائميه على طعامه الخشن :« ترون اني لاشتهي الطعام !؟ إني لآكل السمن وعندي اللحم، وآكل الزيت وعندي السمن ، وآكل الملح وعندي الزيت ، وآكل البحت وعندي ملح . . . ولكنّ صاحبيّ سلكا طريقاً فأخاف ان اخالفهما فيخالف بي » أرأيت كيف يرتب الطعام وجودته-ترتيب عارف عليم به وبذوقه !؟ .

وهكذا ترى ان عمر قد تضافرت على تباعده عن الطعام الليّن — مع حبّه له ورغبته فيه — امور ، منها عدله وشعوره بالاّ يستأثر بشيئ دون عامة المسلمين ، ثم احساسه بما في الآية الكريمة : « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» ثم مخافته ان يختلف به الطريق عن صاحبيه . كان — يرحمه الله — يردد ، بعد ان يسد رمقه بطعام لايستسيغه غيره : « ويحٌ لمن ادخله بطنه النار !» (٢) .

(١) انظر حديثه مع ابي هريرة؛ عامله على البحرين ، وقد لامه لثرائه ؛ في العقد الفريد: ١/٥٤ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٨

(٢) ابن الجوزي ص : ١٢٣

عمر و الشراب

هذا احساس عمر بالطعام، ولعلّه كان اكثر ذوقاً وحسّاً لما يشرب ...، عن عبد الرحمن الأشعري، انه خرج الى عمر — رضوان الله عليه — فنزل عليه قال: «وكان لعمر ناقة يحلبها، فانطلق غلامه ذات يوم، فسقاه لبناً، فأنكره، فقال: ويحك من اين هذا اللبن !؟ قال: ياامير المؤمنين ان الناقة انفلت عليها ولدها، فشرب لبنها، فحلبت لك ناقة من مال الله، فقال عمر: « ويحك سقيتني ناراً ! ادعُ لي علياً بن ابي طالب. قال: فدعاه فقال: « إن هذا عمد الى ناقة من مال الله، فسقاني لبنها. افتحلّه لي !؟ »

قال: « نعم، يا امير المؤمنين هو حلال لك، ولحمها » (١).

ومعلوم ان حاسة الذوق يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً، وان بعض الناس، لايكادون يفرّقون بين حلو وحلو وبعضهم، في بلدنا مثلاً، يعرفون انواع التمر بحلاوته من غير نظر اليه. ومعلوم ان التمر له عشرات الأنواع في العراق. هذا في الطعام. وفي الشراب يقولون: إن شركات الخمور — اعاذك الله منها — في ايامنا هذه، لها اخصائيون وظيفتهم ذوق الخمر، وتفريق ما تمّ وكمل من انواعها، وتدريجه عما هو دونه، مما لم يتم ولم يكمل. نقول: إن التفريق بين لبن ولبن، لايكون الاّ لانسان مرهف الحس في ذوقه. وكذلك كان عمر.

وننظر الى عبارته لغلامه: « ويحك سقيتني ناراً !؟ » إن عبارته توحي للقارئ بالآية الكريمة: « فاتّبعوا أمر فرعون، وما أمرُ فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة، فأوردهم النار، وبئس الورد المورود»(٢) ففي الآية الكريمة عن فرعون، وهو ملك قومه، انه يتقدم قومه، تقدّم الفارط الذي يتقدم الواردة الى الماء،

---

(١) ابن الجوزي، ص: ١٣٩

(٢) سورة هود، الآية: ٩٧

ولكنه يوردهم النار ، لايوردهم الماء. إن الورد انما يراد لإطفاء غلة العطش ، وتبريد الأكباد ، واين النار وفعلها من هذا !؟

وتوحي عبارته ايضاً بالآية الكريمة ، في قوله تعالى : « إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم ناراً » (١). إن عمر — رضي الله عنه — وهو امير المؤمنين وخليفة المسلمين ، توهّم انه تناول من مال المسلمين ، ماقد لايحلّ لـه تناوله . وعمر يقول : « انزلت مال الله عندي بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت عنه ، وإن افتقرت اكلت بالمعروف » . (٢)

نقول : إنه احسّ بهذا ، ولذلك اسرع فقال : « ادع لي علياً بن ابي طالب » وعبارته هذه تريك انه يحسّ انه في مأزق او ورطة يطلب النجاة منها . ثم انظر الى قوله : إن هذا عمد الى ناقة من مال الله . . . » .

وانظر الى لفظة « هذا » وفيها اللوم والتوبيخ . ثم انظر الى لفظة «عمد »التي لاتجعل الذهن ينصرف الى الوهم او الخطأ ، في اتيان ماجاء به الغلام . وانظر الى عبارة: « من مال الله » ومافيها من الحرج والإثم والتجاوز ، لأن عمر أنزل مال الله من نفسه منزلة مال اليتيم .

إن الخبر الوارد عنه في هذا ، لم يكتب لنا بتفصيل ، وما اشك في ان عمر شرب بعض اللبن ، وحين احسّ بتغيير طعمه انكره وانقطع عن الشرب ،ولم يتم شربه ، وصاح بغلامه : « ويحك من اين هذا اللبن !؟ »ثم انظر الى عبارته الى علي بن ابي طالب — رضي الله عنهما — : « افتحلّه لي !؟ » وانظر الى لفظة : « افتحلّه ؟ » وكأن يحسّ احساس من تورّط في شيئٍ يطلب الخلاص او الفكاك منه . إنه لم يقل : « احلالٌ هو لي ؟ » ثم انظر بعد هذا

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٠

(٢) ابن الجوزي ، ص : ٨٩

الى جواب علي بن ابي طالب رضي الله عنه : « هو حلالٌ لك » وكأن علياً رضي الله عنه نظر الى الآية الكريمة « ... إنما يأكلون في بطونهم ناراً . . . » فتمم عبارته ، بقوله : « ولحمها » مع ان عمر لم يسأله عن لحمها احلال هو ام غير حلال .

وقال الرواة « . . . عن ثابت ، قال : اشتهى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه الشراب ، فأتي بشربة عسل ، فجعل يدير الإناء بكفه ، فيقول : «أشربها» وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها !؟ » ثم دفعها الى رجل من القوم فشربها»(١). إننا لاندري لمَ لم يشربها ، وهو قد اشتهاها ، ولا ندري لم تذهب حلاوتها ، وتبقى مرارتها الا ان يكون قد احس بأنه لا يحق له ان يشربها ، مادام عامة المسلمين لايستطيعون شربها مثله ، ولذلك صدّ نفسه عن شربها . ولولا اشتهاؤه الشديد لها ، واحساسه الشديد بما فيها من لذة ، لما صار يتردد بين شربها وعدمه ، حتى صار يدير الإناء في كفّه ، فعل المتحير المتردد . وهو يقول مخاطباً نفسه ، كالمعنّف لها : « اشربها وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها » ولا يفوتك ان « المرارة » تعبير مجازي يقصد به مرارة الندم واللوم ، لا « مرارة» الذوق الحسيّ ؛ لأن العسل لايعرف عنه انه يترك في الفم مرارة لشاربه .

* * *

عمر و الخمر

ويقول عمر عن نفسه : « كنت صاحب خمر في الجاهلية ؛ احبّها واشربها . وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فخرجت اريد جلسائي اولئك ، فلم اجد منهم احداً ... ، فقلت لو انني جئت فلاناً الخمار . . . فجئته فلم اجده ، فقلتُ : لو انني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً او سبعين ، فجئت المسجد اريد ان اطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

(١) ابن الجوزى ص ١٢٦

قائم يصلي » (١) . وهم يروون بعد هذا إنه سمع القرآن من الرسول فرقّ له قلبه ، وبكى ودخله الإسلام .

وتراه في صدر حديثه هذا، يصّور لنا حبّه وولعه بالخمر في جاهليته وحبّه لأصحابه ندامى الخمر ، حتى انه بحث عنهم ، قبل ان يبحث عن الخمر ، وانه خرج يريدهم، حتى اذا لم يجدهم ذهب الى فلان الخمّار علّه يراهم عنده فلم يجدهم ولم يجده . ويذهب الباحثون في الخمر وأثرها في شرّابها ، الى انها من اقوى الأواصر التي تربط بين الأصدقاء وتؤلف بين قلوبهم . وقد ذهب علماء النفس في ابحاثهم وتجاربهم على اهل الخمر ، الى هذا . ورأوا ان الشارب يحن الى الاجتماع بأصحابه ، او نداماه حنيناً قد يزيد على حنينه الى كأسه (٢)

وفي الشعر الجاهلي ، نرى الشعراء تهيج عواطفهم اطلال مجالس الخمر ، وتذكّرهم بالندامى ، فيحنون اليهم حنينهم للعشيقات الظاعنات ، يقول لبيد :

لمن طلَلٌ تضمّنه اثال ... فسَرحة فالمرانة فالخيال

ذكرت به الفوارس والندامى ... فدمع العين سحٌ وانهمال

وقد يمر بعضهم بمجلس الخمر ، فيتذكر اول ما يتذكر ، نداماه به . وقد تثير هذه المجالس صور الندامى ، وقد قتلوا في الغارة والحرب — وما اكثر ما تكون الغارة ويكون القتل فيها عند العرب — فتهيج عاطفة صاحبهم ، ويرثيهم الرثاء الحار . يقول الشاعر طفيل الغنوى ، ويذكر وقعتهم بطيئ ، وقد قتل بها هؤلاء الندامى.

---

(١) العقاد ص ١١٦

(٢) انظر : ص ٢٦١ وما بعدها من كتاب : Notes on a Celler book لـ: Saintsbury وانظر ص: ١٨ من كتاب : تطور الخمريات في الشعر العربي ، لجميل سعيد

وبالخير إن كان ابن جيدع قد ثوى يبنّى عليه بيتــه ويحجّــب
نداماي اضحوا قد تخلّيت عنهم فكيف الذّ الخمر !؟ ام كيف اشرب؟
مضوا سلفاً قصد السبيل اليهــم وصرف المنايا بالرجال تقلّــب

فانظر ايّ عاطفة صادقة تشيع في ابياته هذه ! وانظر الى هذه الحسرة المعبرّعنها بهذا الاستفهام : « فكيف الذّ الخمر ؟ ام كيف اشرب ؟ »(١)

ونعود ، بعد هذا ، فنقول : إن نفس عمر حين تضيق ، تذهب تطلب المتعة ومتعتها في الخمر وندمانها اولاً ، وانها حين لم تجد الى هذا سبيلاً رأت ان تستمتع بالطواف بالبيت .

وأسلم عمر ، وكانت الخمر حلالاً للمسلمين . وكانوا يشربونها فتحدث لهم مشاكل كبيرة ، كان عمر يشهدها ، ويضيق بها ، ويودّ لوأن الله سبحانه وتعالى باعد بين المسلمين وبينها . وفي التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٢) قالوا « : نزلت في الخمر اربع آيات ، نزل بمكة قوله تعالى : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . وكان المسلمون يشربونها ، وهي حلال لهم . ثم ان عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة ، قالوا : يارسول الله أفتِنا في الخمر ، فإنها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال . ونزل فيها قوله تعالى : قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس . فشربها قوم وتركها آخرون . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم ، فشربوا وسكروا ، وقام بعضهم يصلي فقرأ : قل يا ايها الكافرون اعبد ماتعبدون . . فنزلت : لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى فقلّ من شربها . ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن ابي وقاص ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار ، حتى انشد سعد شعراً فيه هجاء للأنصار — فضربه انصاريّ بلحي

(١) تطور الخمريات : ص ٣٧
(٢) ٤٢/١ طبعة المطبعة البهية سنة ١٩٣٨

بعير فشجّه شجّةً موضحةً ، فشكا الى رسول الله صلى عليه وسلم ، فقال عمر : اللهمَّ بيّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزل : إنما الخمر والميسر . . . الى قوله تعالى « فهل انتم منتهون ! فقال عمر : انتهينا ياربّ

وحرّم عمر الخمر على نفسه ، وتاب عنها التوبة النصوح ، والتوبة النصوح – على حد تعبيره – هي التوبة التي لايعاود صاحبها ماتاب عنه. وقسا على الخمر وشرّابها كلّ قسوة . »

وكانت مدينة الطائف كثيرة الخمور ، لكثرة ما فيها من اعناب . وكانت كثيرة الحانات ، قبل ان يدخلها الإسلام ، فلما اسلمت وحرَّم الاسلام الخمر عسر على بعض شرّابها منهم تركها ، فحدَّ بعضهم عمر ، ومنهم الشاعر ابو محجن الثقفي . وحين رآهم يتمادون بالشرب ، ولايستطيعون فكاكاً منه ، شأن مدمني الخمر ، أمر بإضرام النار في حانات الخمور ومعاصرها . ويروي الرواة انه امر بإحراق بيت خمّار يقال له «رشيد»(١)، ولعل ابا محجن الثقفي، وهو من شعراء الخمر المشهورين ، يصور موقفه ، وموقف ندمائه ، يتباكون حول هذه هذه المعاصر – وتلك صفة مدمني الخمر – حين يقول :

رماها امير المؤمنين بحتفها　　فخلاّنها يبكون حول المعاصر

وإني لذو صبر وقد مات إخوتي　　ولست عن الصهباء يوماً بصابر

نقول: قسا عمر – رضي الله عنه – على شرّابها كل قسوة . وفي صحيح مسلم بشرح النووي (٢) في حديث عن الوليد بن عقبة ان عثمان – رضي الله عنه – شهد عنده رجلان : انَّ الوليد شرب الخمر فقال عثمان : ياعلي قم فاجلده . . . فقال : ياعبد الله بن جعفر قم فاجلده . فجَلده وعليٌّ يَعُدُّ ، حتى بلغ اربعين

(١) ابن الجوزي ؛ ص : ١٦٤
(٢) ٢١٥/١١

فقال : أَمْسِكْ . ثم قال :«جلد النبي – صلى الله عليه وسلم – اربعين ، وجلد ابو بكر اربعين ، وعمرُ ثمانين . وكلٌ سُنّةٌ ، وهذا احبُّ اليَّ » وفي صحيح مسلم (١) « . . . عن انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم ، أُتي برجل قد شرب الخمر ، فجلده بجريدتين نحو اربعين ، قال : وفعله ابو بكر ، فلما كان عمر استشار الناس ؛ فقال عبد الرحمن : أخفَّ الحدود ، ثمانينَ . فأمر به عمر » ويشرح النوويّ هذا بقوله : « وفي رواية جلد النبي صلى الله عليه وسلم في الخمر بالجريد والنعال ، ثم جلد ابو بكر اربعين ، فلما كان عمر ، ودنا الناس من الريف ، قال : ماترون في جلد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف ارى ان تجعلها كأخفّ الحدود ، قال: فجلد عمر ثمانين.» وانت ترى ان عمر قد تشدد في حدّ الخمر حتى ابلغه الضعف . ويعلل النووي هذا بشرحه في قوله : « فلما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى . . . ومعناه : لما كان زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ، وفتحت الشام والعراق وسكن الناس في الريف ومواضع الخصب ، وسعة العيش ، وكثرة الأعناب والثمار اكثروا من شرب الخمر ، فزاد عمر في حدّ الخمر تغليظاً عليهم وزجراً لهم عنها»(٢) .

هذه حال عمر وتشدّده في شرّاب الخمر . وقد ذهب بعض الرواة الى انه حدّ ابنه فيها ،بل ذهب بعضهم الى انابنه مات في الحدّ . وقد لانلومه في هذا ؛ لأن من مدمنيها من يهون عليه ان يترك كل شيئ في سبيلها ،جاء في الأغاني (٣) : « ان ربيعة بن امية بن خلف ، كان قد أدمن الشراب وشرب في شهر رمضان ، فضربه عمر – رضي الله عنه – وغرّبه الى ذي المروءة . . .فلحق بالروم وتنصّر . .

(١) ٢١٥/١١
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢١٨/١١
(٣) ٢١/١٥ .

وقدم رسول يزيد بن معاوية على معاوية ، فقال له معاوية : هل كان للناس خبر ؟ قال : بينا نحن محاصرون مدينة كذا وكذا ، اذ سمعنا رجلاً فصيح اللسان مشرفاً من بين شرفتين من شرف الحصن ، وهو ينشد :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامـــر

فقال معاوية : ويحك ذاك الربيع بن امية يتغنى بشعر عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهميّ » .

وترى في قصة ابي الفرج هـذه — وربّما وشّى الخيال حواشيها — ان الرجل كان اهوّن عليه ان يهجر وطنه ودينه ، من ان يترك الخمر حين ادمنها وتعلق بها .

وتتبع احساس عمر في هذا ، فتراه احساس المعاقر التائب ؛ يخاف محنة الفراغ على الناس ، فلا يرى تشبيهاً يشبهها به ، اكثر من محنة الخمر ، والسكر ، يقول : « احذركم عاقبة الفراغ ، فإنه اجمع لأبواب المكروه من السكر » .

وينهى الناس عن الإسراف في اكل اللحم ، فيقول : « اياكم وهذه المجازر ، فإن لها ضرواة كضرواة الخمر »(١) ويقول : « لاتأكلوا في مائدة يُشربُ عليها الخمر » ونحس من قوله هذا ، انه يرى المتعلق بها اولى له أن يباعد بين نفسه وبينها ، مخافة ان تغلبه شهوته عليها حين يراها ، فلا يستطيع ان يصدّ نفسه عنها .

ومانراه يذهب الى هذا كله ، في تغليظ الحدّ ، وفي الأمر باحراق المعاصر والحانات ، والبعد عن موائدها كل هذا البعد ، لولا علمه بصعوبة ترك الخمر على مدمنيها .

* * *

عـر وعمر مرهف الحسّ بالرائحة والطيب. وعطور بلاد العرب معروفة مشهورة.

و الطيب وقد اشار الشاعر الإنكليزي شكسبير Shakespeare الى عطور بلاد ، العرب وحدة رائحتها : (٢)

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ؛ ٨١/٢

(٢) انظر مسرحيته :

Macbeth, P:147. Cambridge, at the University Press 1962

ورووا عن الرسول الكريم صلوات الله عليه : حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة .

وعمر — رحمه الله — كان يقول : « لو كنت تاجراً ، ما اخترت على العطر شيئاً . إن فاتني ريحه لم تفتني ريحه»(١) ويقول : « إنه ليعجبني الشاب الناسك ، نظيف الثوب ، طيّب الريح » ويقول : « ادنوا الخيل وتسوّكوا . . . » فهو يحض على السواك ، لتطهير رائحة الفم .

وفي العقد الفريد (٢) انه سمع في الطواف شعراً لامرأة ، فسأل ، فاذا زوجها متغير الفم . قالوا : فخيره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقها ، فطلقها . والذي يقرأ سيرة عمر ، وحرصه الشديد على مال المسلمين ، يرى مقدار احساسه بهذا ، حتى انه رأى ان يبذل خمسمائة من الدراهم ، ليباعد بين هذه المرأة وبين مااشتكت منه .

والعرب — عامة — معروفون بإحساسهم البالغ برائحة الطيب . وشعرهم الجاهلي مملوء بوصفهم لإحساسهم برائحة الحبيبة ، ومن المشهور قول النابغة الذبياني :

. . . . . رأيت بها طيباً وإن لم تَطَيّب

ومشهور قول سحيم :

وَهبّت شمالاً آخر الليل قَرّةً ولاثوب الا بردهـا ورداثيـا

فما زال ثوبي طيّباً من ثيابهـا الى الحول ، حتى انهج البرد باليا(٣)

فتراه يتخيل رائحتها في برده ، بعد عام من لقائه بها . ويرى ان رائحتها ، حين مس بردها برده — علقت في برده وظلت ، او ظلّ يشمها ، حولاً ، حتى خلق

---

(١) ابن الجوزي ؛ ص : ١٦٧

(٢) ٤٦٣/٢

(٣) ديوان سحيم ؛ ص : ٣٠ — طبعة دار الكتب المصرية

البرد وبلي . وعندنا ان هذا احساس الوهم ، الذي يصوّره الخيال لمرهفي الحسّ بشم العطر وذوقه ، لااحساس الحقيقة .

نقول : هذا احساس مرهفي الشعراء منهم بالطيب . وعمر — رضي الله عنه — كان مثلهم . قتل اخوه زيد بن الخطاب ، وكان عمر محباً له مولعاً به ، قتل في حرب اليمامة من حروب الردّة ، وحزن عليه عمر ، وكان يقول : « ماهبّت الصبا من جهة اليمامة الا شممت فيها رائحة اخي زيد » واين اليمامة ونجد من الحجاز !؟ ولكنّه احساس الوهم والخيال يعرض لأهل الحواس المرهفة من الناس.

على انه — رضي الله عنه — كان لحرصه الشديد على مال المسلمين يذود نفسه عن الطيب ذوده لها عن الطعام. يروي ابن الجوزي(١) عن سعد بن ابي وقاص — رضي الله عنه — قال : قدم على عمر مسك من البحرين ، فقال عمر : والله لوددت اني اجد امرأة حسنة الوزن ، تزن لي هذا الطيب ، حتى افرّقه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة : انا جيدة الوزن ، فهلم ازن لك . قال : لا. قالت : ولم ؟ قال : اخشى ان تأخذيه هكذا ، وتجعليه هكذا — وادخل اصبعيه في صدغيه — وتمسحين به عنقك ، فأصيب منه فضلاً عن المسلمين » .

ويروون ان امرأته باعت من طيب المسلمين لعطّارة ، وصار الوزن يزيد وينقص فتكسر الطيب بأسنانها ليستوي الوزن . ثم وضعت اصبعيها في فيها ومسحت على خمارها . ودخل عمر ، فقال : ماهذه الريح !؟ فأخبرته الذي كان . فقال : طيب المسلمين انت تتطيّبين به !؟ ثم انتزع خمارها من رأسها ، واخذ جزءً من ماء فجعل يصبه على الخمار ، ثم يدلكه في التراب ، ثم يشمّه . وفعل ذلك ما شاء الله .

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ؛ لابن الجوزي ص : ١٣٨

أرأيت الى حرصه الشديد على مال المسلمين ، الذي يمليه عليه احساسه الشديد بما في الطيب من متعة ولذة ، يخشى ان ينالها دون بقية المسلمين !؟

* * *

عمر والحداء والغناء

وكان عمر يبعثه ابوه بالابل في شعاب ضجنان ، يحتطب عليها مرة وعلى ظهره أُخرى . ومرافقة الإنسان لحيوانه تحدث بينهما شيئاً من التجاوب والالفة.

والعطف وكذلك كان العرب مع ابلهم ، وكذلك كان عمر. عن المسيّب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب يؤنبّ رجلاً ، ويقول : «حمّلت جملك مالا يطيق !» وقال الأحنف بن قيس : « وفدنا على عمر — رضوان الله عليه — بفتح عظيم ، فقال : اين نزلتم ؟ فقلنا : في مكان كذا وكذا . . . فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا ، فجعل يتخلّلها ببصره ، ويقول : الا اتقيتم الله في ركابكم هذه !؟ اما علمتم ان لها عليكم حقاً ؟ الا خلّيتم عنها فأكلت من نبت الأرض ؟ فقلنا : ياامير المؤمنين ! إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا التسرّع الى امير المؤمنين والى المسلمين بما يسرّهم » (١) .

وهكذا ترى عمر يؤنب رجلاً حمّل جمله فوق طاقته . ويؤله ان ينصرف الأحنف بن قيس واصحابه ، ويتركوا رواحلهم مقيّدة ، لايخلّون بينها وبين نبت الأرض ترعاه . وتراهم حين رأوه يأسى لهذا ، ويؤنبّهم عليه ، ردّوا عليه معتذرين .

ونقول : جدير بمن يرعى الإبل ويحتطب عليها ، ويرافقها ، ويعطف عليها ان يحدوها ليسلي نفسه بالحداء ، وليخفّف عن ابله ايضاً . وقد ذهبوا : الى ان الجمل يستخفّه الحداء ، حتى يجعله يرى احماله الثقيلة خفيفة عليه ، ويبعث فيه من النشاط مايسكره ويولّهه . وذهبوا : الى ان الجمال تستمع الى صوت الحادي

---

(١) ابن الجوزي ؛ ص : ٩٧

– وقد اعتراها الكلل وثقلت عليها احمالها – فتخفّ في سيرها ، وتسرع حتى تزعزع عليها احمالها . وربما اتلفت نفسها من شدة السير ، وثقل الحمل ، وهي لاتشعر بهذا لفرط ما يعتريها من الحداء . وهم يقصّون القصص في هذا (١) .

وكان عمر – في جاهليته – يحدو إبله ، وظلّ يحبّ الحداء ويطرب له الطرب كله ، بعد ان اسلم وصار خليفة ايضاً . وفي العقد الفريد (٢) : «قال عمر بن الخطاب للنابغة الجعديّ : أسمعني بعض ماعفا الله لك عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له : قال وإنك لقائلها !؟ قال : نعم . قال عمر – رضي الله عنه –: لطالما غنّيتُ بها خلف جمال الخطّاب » .

وكان الحداء يطرب عمر ويستوقفه . عن عاصم بن عبيدالله بن عامر ، قال : «سمع عمر صوت ابن المغرّف الحادي، في جوف الليل ، ونحن منطلقون الى مكة فأوضع عمر راحلته ، حتى دخل مع القوم . . . فلما طلع الفجر ، قال للحادي : اسكت الآن ! قد طلع الفجر . اذكروا الله تعالى » . (٣)

وهكذا تراه يظل يستمع الى الحادي حتى يطلع الفجر ، ولكنه مع شهوته لسماع الحداء ، كفّ عن السماع ليذكر ويذكروا الله ؛ فهو يحب الحداء مالم يكن فيه لاهياً عن ذكر الله .

وكان يحب الغناء واصوات الدفوف ، حبّه للحداء . قالوا : سمع عمر ضوضاء في الدار ، فسأل : ماهذا ؟ قيل له : عرس . فقال هلاّ حرّكوا غرابيلهم ! يعني الدفوف . ورووا عنه ، انه جيئ برجل يغنّي بالحج ، وهو محرم، فقال :

(١) انظر مقالنا عن الشعر والإنشاد ؛ في المجلد الرابع عشر من هذه المجلة . وانظر كتاب احياء علوم الدين – للغزالي ؛ ١/٢٧٥

(٢) ٦/٩

(٣) ابن الجوزي ، ص : ٧٠

دعوه ، فإن الغناء زاد الراكب » وحسبك بعبارته هذه رخصة في الغناء وتحبيذاً له وكان يستمتع بالغناء ، ويطيل الإستماع اليه ، مالم يكن به شاغل عن شيئ من أمر دينه ، ولاينهى عنه الا ان يكون مثاراً لغواية اوشهوة (١). روي عن نائل مولى عثمان بن عفان . انه خرج في ركب مع عمر وعثمان وابن عباس . . . وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المغترف الفهري . وكان رباح هذا يجيد الحداء والغناء ، فسألوه ذات ليلة ان يحدو لهم ، وتردّد ، وقال مستنكراً : مع عمر ! ! قالوا : احدْ ، فان نهاك فانته . فحدا ، حتى اذا كان السحر ، قال له عمر : كفّ الآن ! فإن هذه ساعة ذكر . قالوا : وفي الليلة الثانية سألوه ان ينصب لهم نصب العرب — والنصب ضرب من الغناء — فتردد رباح تردّده بالأمس ، ثم غنّى ، حتى اذا كان السحَر ، قال له عمر : كفّ ! فإن هذه ساعة ذكر

ودخل مرةً على خادمه اسلم ، وابنه عاصم ، وهما يغنّيان غناء النصْب . فوقف يسمع منهما . . . وسألاه : ايهما احسن غناء ؛ فقال : اعيدا علي ، فأعادا عليه . فقال لهما ممازحاً : مثلكما كمثل حمارَي العبادي . ، سئل : ايهما شرّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا .

وخرج للحج مرةً ، ومعه خوات بن جبير ، وابو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن ابن عوف . . . فاقترحوا على خوّات ان يغنّيهم من شعر ضرار . قال عمر : « بل دعوا ابا عبد الله ! فليغن من بنيات فؤاده » قالوا : فما زال يغنّيهم ، حتى كان السحَر ، فهتف به عمر : « ارفع لسانك ياخوّات فقد أسحَرنا ! » .

ولئلا تفوتك ملاحظته هذه في الفرق بين ان يغني المغني بشعره ، وان يغنّي بشعر غيره ، نورد قول الأصمعي : قلت لبعض الأعراب : انشدني شيئاً من شعرك . قال : كنت اقول الشعر ثم تركته . قلت : ولم ذاك ! ؟ قال : لأني قلت شعراً ، وغنّى فيه حكم الوادي ، وسمعته ، فكاد يذهل عقلي ، فآليت الاّ

(١) عبقرية عمر ـ للعقاد ؛ ص : ٢٩٦

اقول شعراً.(١) وهم يحدثون الأحاديث الكثيرة عن الشعراء يُغَنّون بأشعارهم فيحدث لهم من الهياج والإثارة ، مالا يستطيعون ان يملكوا معه نفوسهم (٢) ومن هنا نرى ملاحظة عمر ، في ان يغنّي خوات بن جبير من « بنيات فؤاده »لأنه يكون احمى عاطفة ، واكثر تأثراً وتأثيراً حين يغنيّ بشعره .

وقد يخلو عمر الى نفسه ، وتستثيره الذكرى ، فيغنّي . قالوا : كان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء ، وانشد :

وما حملت من ناقــة فوق رحلها   أبرّ وأوفى ذمــة من محمــد

فاجتمع الركب اليه . . .

وجاء عبد الرحمن بن عوف الى بابه مرة ، فوجده مستلقياً على مزحفة له ، واحدى رجليه على الأخرى ، وهو يترنّم ويغنّي :

وكيف ثوائي بالمــدينة بعدما   قضى وطــراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عليه ، وجلس ، قال له عمر : يا ابا محمد ! إنا اذا خلــونا قلنا كما يقول الناس .

وهكذا ترى عمر يحب الغناء ؛ يسمعه ويغنيه بنفسه . وقد شهر بهذا ، وحسبنا من شهرته ان يكتب ابن خرداذبة عن اغاني الخلفاء واولادهم فيعتبر عمر الأوّل في هذا ، ويبتدئ به — رضي الله عنه — ويذكر انه تغنّى وقد ركب ناقة فاستوطأها :

كأن راكبها غصن بمروحــة   اذا استمرت به او شاربٌ ثَمِلُ (٣)

* * *

غيرته على النساء

وكان عمر شديد الغيرة على النساء . والغيرة على الشيئ ، لاتكون الآ لشدة الحبّ والإعزاز له ، وشدة الحرص عليه . ويزيد في الغيرة على النساء ان يكون

(١) الأغاني ؛ ٣٨١/١١
(٢) انظر في هذا مقالنا : الشعر والإنشاد ، في المجلد الرابع عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي
(٣) الأغاني ؛ ٢٥٠/٩

المرء عفيفاً ذا دين وذا مروءة . وكذلك كان عمر . كان — رحمه الله — يقول : «لن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه » . وكان يقول : « المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ، ومروءة باطنة ؛ فالمروءة الظاهرة الرياش ، و المروءة الباطنة العفاف (١) وكان — رحمه الله — لشدة عفافه ومروءته وغيرته ، يحس بما يعانيه المحبّون ذوو المروءة والعفاف ، حتى رووا عنه قوله : « لو ادركتُ عفراء وعروة لجمعت بينهما » (٢) .

وفي رسائل الجاحظ (٣) : « وانتم تروون ان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — كان اغير الناس ، وان النبيّ — صلى الله عليه وسلم — قال له : « إني رأيت قصراً في الجنة ، فسألت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر بن الخطاب . فلم يمنعني من دخوله ، الا لمعرفتي بغيرتك » فقال عمر ، وقد بكى : « وعليك يغار يانبيّ الله ! » .

وكان الرسول الكريم ، يحمد هذه الصفة ، ويحمدها في عمر خاصة ، وقد روي عنه — صلى الله عليه وسلم — قوله : (٤) «إن الله غيور يحبّ الغيور ، وإن عمر لغيور » وحسبك من تناهي عمر في الغيرة هذه ، ان اشار على الرسول الكريم بحجاب أزواجه ، امّهات المؤمنين (٥) .

ومن غيرته الشديدة على النساء ، رووا عنه قوله : «استعينوا عليهنّ بالعُري » وقداورد الجاحظ قوله هذافي الحديث عن النساء ، وما يفتنهُنّ ، وفسّره بقوله : « لأن الثياب هي المدعاة الى الخروج في الأعراس . . والظهور في الأعياد»(٦).

---

(١) العقد الفريد ؛ ٢٢١/١

(٢) ابن الجوزي ؛ ص : ٧٠

(٣) ١٥٢/٢ طبعة الاستاذ عبدالسلام محمد هارون

(٤) عبقرية عمر ـ للعقاد ، ص ٣٢٥

(٥) انظر تفسير الزمخشري في الآية الكريمة : واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ؛ ذلكم اطهر لقلوبكم ، وقلوبهن » سورة الأحزاب الآية : ٥٢

(٦) الحيوان ١٧١/١ طبعة الاستاذ عبدالسلام محمد هارون

وبلغ في غيرته هذه إن نهى ان يعرّض الحادي بذكر النساء ، وهو محرم(١) وفي حديث للجاحظ : « وخرف النمر بن تولب – العُكليّ ، فكان هجّيراه : اصبحوا الركب ، اغبقوا الركب . وفرت امرأة من العرب ، فكان هجّيراها : زوّجوني ! زوّجوني . فقال عمر بن الخطاب : « لما لهج به اخو عُكل خيرٌ مما لهجت به صاحبتكم » وما نراه ليرى هذا ، لولا ما في عبارتها مما يحرج الرجل الغيور ويخجله ! .

* * *

عمر و اسرته

وكان عمر محباً لأسرته ، على اننا لانكاد نجد من الأخبار ما يتحدث به عن امّه ، حتى اننا لنرى مؤرخيه يختلفون فيما اذا كانت امه «حنتمه» بنت هاشم او بنت هشام بن المغيرة . ومن اسباب هذا عندنا ان العرب عامة كانوا يأنفون من الحديث عن امهاتهم ، بل اننا لنراهم يسمون الرجل باسم امّه ، اذا ارادوا تعنيفه ، او النيل منه . وعمر نفسه ، يبعث ابا هريرة – رحمهما الله – عاملاً على البحرين . ويبلغه انه ابتاع افراساً بألف دينار وستمائة دينار ، ويسأله عنها فيجيب : بأن كانت لهم افراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت . . .» فيقول عمر : « اجئت من اقصى حجر بالبحرين يجبى الناس لك ، لا لله ولا للمسلمين ! ما رجعت بك أُميمة – اي ما ولدتك – الا لرعية الْحمُر ! » واميمة هذه ام ابي هريرة (٢) .

وجاء أمر عمر بعزل خالد ، وكان خالد قائد المسلمين في حرب اليرموك . قال ابن الأثير (٣) : « . . . ودخل خالد الخندق . . . فلما اصبحوا أُتي خالد

(١) ابن الجوزي ، ص : ١٦٨
(٢) العقد الفريد ؛ ١/٤٦
(٣) ٢/٢٨٢ ، طبعة منير الدمشقي

بعكرمة بن ابي جهل جريحاً . — وعكرمة صاحب خالد وصديقه — فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه . ومسح خالد وجوههما ، وقطّر في حلوقهما الماء ، وقال : « زعم ابن حنتمة — يعني عمر — الا نستشهد».

نقول : لعل الحديث عن الأمهات كان امراً غير محمود عندهم ، ومن هنا كان عمر لايتحدث عن أُمه ، او لعل المؤرخين . لهذا السبب ايضاً ، لم يشيروا — فيما بين ايدينا من كتب — الى ذكر حديث عمر عن أُمّه حنتمة بنت هشام او هاشم بن المغيرة .

اما حديثه عن أبيه ، فيرينا ان عمر كان محباً مكبراً له ، ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (١) : إن عمر « كان كثيراً ما يقول : سمعت ذلك من الخطاب ، ولم اسمع ذلك من الخطاب » ولا نراه يقول هذا الا حباً لأبيه وإعزازاً وتعظيماً له . وحسبك من حبّه و اكباره له ان ظل يقسم باسمه وهو كهل حتى نهى النبي — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك . وقد نهى الرسول الكريم عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية . هذا كلّه ، وعمر يمرّ بشعاب ضجنان ، بعد ان صار خليفة ، ودانت له الدنيا ، فيقول عن الخطاب ابيه : « لقد رأيتني في هذه الشعاب في إبل للخطاب ، وكان فظّاً غليظاً احتطب مرةً على ظهري ، واحتطب عليها اخرى . ثم اصبحت اليوم وليس فوقي احد » يقول هذا ، ويعقبه منشداً (٢)

لاشيءٌ فيما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ، ويودي المال والـــولد

ولانراه ينشد هذا البيت ،الا ان يكون قد دارت بخياله صورة ابيه ،وانّه تحسّر على فقده ، فأدار هذا البيت على لسانه ، يعزّي نفسه ؛ ويسليها بأن الله وحده هو

---

(١) ١/٣٠٤ طبعة الاستاذ عبدالسلام محمد هارون

(٢) ابن الجوزي ؛ ص : ١٣٣

الباقي ، وكلٌّ من عليها فان . وعمر يذكر هذا ويتحسّر عليه، مع انه لم يكن هو وابوه من الموسرين . يقول عمرو بن العاص ، حين بلغ عمر انه فشت له فاشية من خيل وابل وغنم وعبيد بعد ان اصبح عاملاً على مصر ، وبعث اليه عمر محمد بن مسلمة ، ليشاطره ماله ؛ لأنه — على مايرى عمر — حصل على هذا بسبب ولايته وحكمه . يقول عمرو لمحمد بن مسلمة في معرض التعريض بعمر — رضوان الله عليه — : « قَبَّحَ الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل . والله ! إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمةً من الحَطَب ،وعلى ابنه مثلها . ومامنهما الافي نمرة — والنمرة بردة من صوف تلبسها الأعراب—لاتبلغ رُسغَيْه . . . » (١) .

واحبّ عمر أبناءه ، وكان يتبسط مع صغاره ، حتى ليستلقي على ظهره وهو يلاعبهم . ويروون انه سأل احد عماله : « كيف انت مع اهلك؟قال : اذا دخلت سكت الناطق . فقال عمر : « اعتزلْ ، فإنك لاترفق بأهلك وولدك ، فكيف ترفق بأمّة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ » (٢) .

وكان عبدالله بن عمر احبّ ابناء عمر اليه . كانت ولادته في العاشرة قبل الهجرة ، وأسلم مع أبيه بمكة ولم يكن بالغاً حينئذٍ ، وهاجر مع ابيه الى المدينة وعُرض على رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ،يوم بدر فردّه ، وعُرض عليه يوم أحد فردّه ايضاً لصغر سنه ، فلما كان يوم الخندق عُرض عليه وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . وشهد الخندق وفتح مكة ، وبقية المشاهد . . . (٣) .

قالوا : وكان اشبه ولد عمر بعمر. وكان عمر يحبه فوق حبّ الآباء لأبنائهم. ولعل مرافقته لأبيه في الهجرة ، وفي الحروب يذودان بها عن الإسلام ، مما جعل

(١) العقد الفريد ٤٨/١
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف — للأبشيهي ؛ ص : ١٥٢
(٣) صفوة الصفوة — لابن الجوزي ٢٣٦/١

نفس عمر تتعلّق به ، وحسبك به تعلّقاً ان يقول فيه : « مامن اهل ولا ولد ولا مال ، الاّ واحبّ ان اقول عليه : انّا لله وإنّا اليه راجعون ، إلاّ عبدالله بن عمر احبُّ ان يبقى في الناس بعدي .

واحبّ عمر ابنه عاصماً ، وكان عاصم هذا من احسن الناس خلقاً . وكان قريباً من نفس اخيه عبد الله بن عمر ومن قلبه ، وكان عبد الله يقول : انا واخي عاصم لانغتاب الناس . ومات عاصم بالرَّبذة وجزع اخوه عبد الله عليه ، وراح يندبه ويتمثّل بقول متمم بن نويرة في اخيه مالك بن نويرة ، ينشده ويردده :

فليت المنايا كنَّ خلّفن مالكاً فعشنا جميعاً او ذهبْن بنا معـا

ويسمه عمر — رضوان الله عليه — فيروح ينشد معه ، قول متمم هذا ولكنه يضع « عاصماً » يستعيض بها عن « مالك » وينشد :

فليت المنايا كنَّ خلفن عاصماً فعشنا جميعاً او ذهبن بنا معـا

ولك ان تنظر الى جزعه في قوله هذا . هذا مع ايمانه العميق واحتسابه (١).

وموقف عمر هذا من ابنائه ، جعله يزور القبور ، ويقدّر عاطفة الأبوة ، ويحسُّ لوعة فقد الآباء للأبناء ، ويحبّ ان يسمع شعر الرثاء يقوله الآباء في رثاء ابنائهم ؛ كأنه يجد في هذا الشعر تنفيساً لما في نفسه عن ابنه عاصم الذي احتسبه . وفي العقد الفريد (٢) : « خرج عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يوماً الى بقيع الغرقد ، والغرقد مقبرة اهل المدينة ، فإذا اعرابيّ بين يديه ، فقال : ياأعرابيّ ما ادخلك دار الحقّ ؟ قال : وديعة لي هاهنا من ثلاث سنين . قال عمر : وما وديعتك ؟ قال : ابن لي حين ترعرع فقدته ، فأنا اندبه . قال عمر : أسمعني ماقلت فيه . وراح الأعرابي ينشد ، وعمر يسمع . . . ثم قال عمر ، وكأنه قد سرّى عنه بالإنشاد : صدقت ياأعرابي ! غير ان الله خيرٌ لك منه .

---

(١) الإصابة — ٣/٥٦

(٢) ٣/٢٥٥

يتبـع

جميل سعيد